بعض المفاهيم الأساسيّة في السّيميائيّة العامّة*

جان ماري فلوك

ترجمة : جمال بلعربي

مركز البحث العلميّ والتّقنيّ

لتطوير اللّغة العربيّة

• مستويات اللّغة ودرجاتها

ينتج المعنى بالنسبة للسيميائية في الكلام والكتابة والإشارة والرسم، من اجتماع المستويين اللذين تتوافر عليهما أية لغة: مستوى العبارة ومستوى المضمون. مستوى العبارة هو المستوى الذي تفرز فيه، وتتمفصل فيما بينها، الخصائص الحساسة التي تستثمرها لغة ما، بمباعدات فارقة. أما مستوى المضمون فهو المستوى الذي تولد فيه الدلالة من المباعدات الفارقة التي بفضلها تقوم كل ثقافة ومن أجل استيعاب العالم، بتنظيم الأفكار والمحكيات وتسلسلها.

---

*- هذا النص مأخوذ من كتاب :

Questions de sémiotique, sous la direction de Hanne Hénaut PUF, Paris 2002 (pp103-119)

ترجمة لمقال : Quelques concepts fondamentaux en sémiotique générale

السيميائية كلها في ثلاث جمل قصيرة ؟ نعم ولا، إذ إن هذه "الجمل القصيرة" تُحمل الاختصاص كله أكثر مما يبدو عليها: إنها تؤكد بها ضمنيا أنها تتبع التصور السوسيري، الأوروبي للغة، وليس التصور الأمريكي لبورس. ولكن في الوقت نفسه تسجل إرادتها في التميز عن السيميولوجيا. هذا وضع مفارق بكل تأكيد ما دام "ف. ديسوسير" هو من "اخترع" السيميولوجيا. فلنوضح إذن.

1- عندما نضع هكذا تعريف للمعنى، تستنتج السيميائية، مثلا أن المرجع ليس عنصرا تكوينيا للغة - سواء كان هذا المرجع (ما قد تحيل عليه اللغة) بالنسبة لبعض الدارسين هو العالم "الحقيقي" أو بالنسبة لبعض آخر، "سياق" التواصل. إن التقليد السوسيري يرفض الافتراض الميتافيزيقي المسبق للتناظر حدا بحد بين اللغة والكون المرجعي. وهنا نشير إلى نتيجتين لهذا الرفض، واحدة نظرية والأخرى تطبيقية أكثر: أ) تنال السيميائية بذلك كاختصاص علمي استقلاليتها. فيمكنها أن تدرس وقائع اللغة دون أن تخضع لأي علم آخر "للواقع"، سواء أكان فيزيائيا أم اجتماعيا إلخ...ب) لا تعتقد السيميائية أن بعض اللغات، اللغات البصرية مثلا، تكون أكثر "وفاء" لـ"واقع" من غيرها: فالرسم، حتى وهو تجسيدي، هو اعتباطي مثل الكلمة. وهكذا تمنح السيميائية نفسها إمكانية تحليل المعتقدات، الأحاسيس والمواقف التي يتبناها كل مجتمع تجاه لغاته.

2- صحيح أن سوسير سلم باستقلالية اللسانيات و"السيميولوجيا" عندما عرف العلامة بالعلاقة بين حدين فقط، هما الدال والمدلول. لكن تطور الفكر السوسيري نفسه يبين أن العلامة ليست سوى وحدة لتمظهر اللغة. إنها منتج تاريخي، واقعة استعمالية لا تفسر دراستها بصورة مباشرة كيف تشتغل اللغة. نعم، بكل تأكيد، يجب أن ندرس العلامات، مادام أنه في العلامات يقع اجتماع مستويي اللغة، ولكن من أجل الوصول

إلى فهم اللغة كنظام، نذهب إلى ما وراء العلامة أو ما بعدها، نفصل وجهي العلامات لنرى في أي شيء يكون كل من الوجهين إنجازا، وهذا انطلاقا من الإمكانات التي تتيحها مجموعة المباعدات الفارقة التي يتكون منها كل مستوى. نسمي الوحدات التي يتكون منها كل واحد من المستويين "هيأة" أو "لا-علامة". إنها تمثل توفيقات لسمات ناتجة عن المقولات التي هي الوحدات الصغرى لذينك المستويين.

3- عندما لا تفضل السيميائية العلامة، فإنها تتميز إذن عن "السيميولوجيا" التي تعتبر اللغة "نظاما من العلامات". لكن هناك نقطة خلاف أخرى أيضا: إن السيميائية ترفض أن تربط مسألة الدلالة، المعنى المتمفصل، بـ"نية" واضحة في بث الرسالة. فعالم الدلالة لا يمكن أن يختزل في ظاهرة التواصل. يجب أن يكون إنتاج المعنى موضوع دراسة بنوية يتمثل أفقها في التنظيم الذي يضفيه الإنسان الاجتماعي على تجربته. والشفرات ليست أبدا إلا منظورات في هذا الأفق، تمنحها المجتمعات للمحلل، الذي عليه أن يخضع لها. فالسيميائية أقرب إلى الأنثربولوجيا منها إلى نظرية الإعلام.

4- لقد تعمدنا في هذه "الجمل القصيرة" أن نكرر عبارة المباعدات الفارقة" وهذا لسببين. فمن جهة، يريد هذا التكرار التذكير بأن السيميائية تتبنى قول ف. دي سوسير بتوازي مستويي اللغة : لقد قام بعض اللسانيين بتجليل بنوي للمضمون لأنهم كانوا يريدون استخلاص النتائج من ذلك القول: دلالية بنوية على غرار الفونولوجيا (التي تهتم من جهتها بالمباعدات الفارقة في تعبير اللغات) وأنهم بعد الوقوف على ضرورة تجاوز الاقتصار على دراسة الدلالة اللغوية، قاموا بتأسيس السيميائية. من جهة أخرى، جاء هذا الإصرار على المباعدات الفارقة كمكونات لمستويي اللغة، وذلك إحالة ليس فقط إلى عبارة دي سوسير الشهيرة: "لا يوجد في اللسان

سوى الاختلافات"، بل إنها تشير إلى التمييز، الضمني عند سوسير، والذي صاغه هيالمسلاف نظريا، بين صعيدي الشكل والمادة لكلا من المستويين. ليس الشكل في السيميائية مقابلا لـ"العمق"، وهو قد يكون وحده الدال. إن الشكل هو التنظيم الثابت والعلائقي الخالص لمستوى ما، والذي يمفصل المادة الحسية أو المادة التصورية منتجا بذلك دلالة. إن الشكل إذن بالنسبة للسيميائية هو الدال. والمادة هي المكون المادي الحامل المتغير الذي يتولاه الشكل. ليست المادة إذن غير إنجاز، في لحظة ما، للشكل. إننا نفهم أن المادة التي يعتبرها هيالمسلاف "مجموع عادات مجتمع ما" يشملها المفهوم الذي صادفناه أعلاه وهو"الاستعمال". لقد اتخذت السيميائية موضوعا لها دراسة علاقة الافتراض المسبق المتبادل (إذ لا يوجد التعبير إلا بوجود المضمون ولا يوجد المضمون إلا بوجود التعبير) بين الشكلين، ما داما هما اللذان ينتجان تلك الاختلافات التي دونها لن يكون هناك معنى. كل لغة إذن تتكون من مستويين يقبل كل منهما التحليل إلى صعيدين :

$$\frac{\text{تعبير} \left[\begin{matrix} \text{شكل} \\ \text{مادة} \end{matrix} \right.}{\text{مضمون} \left[\begin{matrix} \text{شكل} \\ \text{مادة} \end{matrix} \right.}$$

5- عند ذكر المرجع من قبل (لننفي خصوصيته في السيميائية) كنا نلمح إلى المواقف التي يتبناها كل مجتمع حيال لغاته، سواء اعتبرت "وفية" للواقع أم لا، مبتذلة أو مقدسة، شريفة أو عامية، إلخ. إن استعمال لغة ما هو تحمل الحكم الفردي أو الجماعي للآخرين. وهذه الظاهرة هي ظاهرة الإيحاء. إن وحدات التعبير، مثل وحدات مضمون الشكل، وكذا المادة، بل العلامة، يمكن أن تشكل مستوى التعبير للغة ثانية يكون مضمونها

تلك الأحكام وتلك المواقف، والممارسات اللغوية الخاصة بكل مرحلة، وكل جماعة، بل ربما بكل فرد . يمكن تمثيل التنظيم الإيحائي كالتالي (قدمنا أمثلة "إيحاء" لكل مستوى ولكل صعيد) :

تعبير: - تعبير : - شكل : ظهور/ اختفاء الأبعاد الفارقة الحساسة

- مادة : طريقة التمفصل

- (تظاهرات): استعمال العلامات والكلمات الخاصة

- مضمون : - مادة : عوالم تشكيلية مفضلة

- شكل : فئات المحكيات، بنيات نحوية

مضمون : - مادة : الأوجه التي تتخذها الأحكام والمواقف

- شكل: نظام إيديولوجي

• وجها اللّغـة

يمكن لأية ظاهرة، بمجرد أن نتخذ منها موضوع تحليل، أن نتعامل معها وفق وجهين، وجه النظام ووجه الإنجاز. النظام هو مجموع علاقات الاختلاف والتشابه التي تعرف الممكنات المتضمنة في التنظيم الفعلي للموضوع المحلل. والعملية هي مجموع توظيبات العناصر المنتقاة والموفق بينها والتي يشكل حضورها معا الموضوع المنجز. ومن اللحظة التي نعتبر فيها الموضوع موضوعا سيميائيا، أي واقعة لغوية، فإن دراسة نظامه تحيل على المحور التركيبي. فيكون المحور الاستبدالي إذن متميزا بتراتبية من العلاقات من الصنف "إما .. إما"، والمحور التركيبي بتراتبية علاقات من الصنف "و ... و". يسمح هذا التعريف المزدوج بتبين وتجنب عدد من التصورات والاستعمالات الاستعراضية في السيميائية، وحتى في

السيميولوجيا. لن نتفحص هنا سوى اثنين من تلك "الأمراض الطفولية"، وكل منهما يرجع سببه إلى قراءة متسرعة لبعض الكتب التمهيدية.

1- إننا نقوم، وبمجرد التوافق البيداغوجي، بالتمثيل بصريا للمحور الاستبدالي بخط عمودي والمحور التركيبي بخط أفقي آخذين من جهة أخرى وعلى سبيل المثال وقائع اللغة، جملا (أو أضواء نظام المرور)، فإننا غالبا ما نعتقد أن كل إنجاز، كل خطاب، لا يكون إلا خطيا، أي زمنيا. يجب التذكير إذن أن كل موضوع سيميائي هو موضوع صوري، أي أنه مستقل عن تمظهره الزمني أو المكاني. إن اللوحة التشكيلية إنجاز، سيميائية تماما مثل النص. وهو يتجلى خلال المكان، بينما يجري الآخر عبر الزمان. وتمظهرهما هو الذي يختلف وليست صفتهما كموضوع معنى.

2- إننا نمثل بصريا أيضا، بخطين، واحد أفقي والآخر عمودي، بعدي الزمن البحثيين الآخرين الذين يميز بينهما ف. دي سوسير، وهما على التوالي، التعاقب والتزامن. تبحث الدراسة التعاقبية عن القيمة التي تكتسبها الظاهرة "عبر الزمن"، وتحدد الدراسة التزامنية، التي يحتفظ بها دي سوسير دون الأخرى، قيمة ظاهرة بعلاقتها مع الظواهر التي تتزامن معها. وقد أدى تطوير المشروع السوسيري نفسه، أي التحليل البنوي للسان، إلى تعريف هذه الأخيرة باتساقها المنطقي الداخلي أي اللازمني. ولم يقم بذلك لسبب "إيديولوجي" وإنما فقط من باب الاتساق مع مبادئه النظرية والمنهجية الخاصة، ومن زاوية جد عملية، لكي يلعب دور أداة المقارنة بين الوقائع المكانية و/ أو الزمانية للغة. إن نزعة المقارنة هي القدر المشترك بين سوسير وليفي ستروس ودوميزيل وآخرين. ويمكن أن نتحدث عن خصوبتها.

• المسار التّوليديّ للدّلالة

لقد رأينا أن السيميائية تهدف إلى بلورة نظرية للدلالة -وليس فقط للتواصل القصدي- يمكنها أن تعبر ليس فقط عن لسان واحد وإنما عن كل اللغات. مثلا : إن المدينة، بما هي فضاء بناه الإنسان، بفضل تقنيات مبثوثة ومشحونة بتصور كامل لعلاقات الإنسان بالطبيعة وبالمجتمع، فهي المدينة إذن موضوع دال. وتتولى السيميائية المعمارية اليوم من جهتها مهمة التعبير عن الطريقة التي تنتج بها المدينة أثر المعاني على من يتجول فيها أو يسكنها أو يزورها.

لقد أحرزت السيميائية على نموذج لتمثيل إنتاج المعنى، من خلال التحاليل الملموسة المنجزة من حوالي عشرين سنة على لغات جد متنوعة: ما الذي يحدث بين الإختلاف الأول المبدع للمعنى والتمفصلات المتعددة النصية والإشارية والتصويرية التي تظهر من خلالها الأعمال الأكثر غنى وتعقيدا ؟ إن المسار التوليدي للدلالة تمثيل حيوي لهذا الإنتاج للمعنى. إنه الترتيب المنظم للمراحل المتتابعة التي تمر بها الدلالة للاغتناء، ولتصبح، بعد كونها بسيطة ومجردة، أكثر تعقيدا وتجسيدا. إننا نفهم اختيار مصطلح المسار. لكن لماذا هو "توليدي" ؟ لأن كل موضوع دال، بالنسبة للسيميائية، يمكن -ويتوجب عليه- أن يكون محددا وفق ضرب إنتاجه وليس وفق "تاريخ" إبداعه: وهكذا يتعارض "التوليد" مع "الميلاد". يتعلق الأمر هنا بتعارض منهاجي أساسي : إن تشكيل المعنى - منذ التمفصل الأدنى إلى غاية التمفصلات التي سوف تجتمع في مستوى التعبير - عبارة عن تطور منطقي، يتم بناؤه بعديا بواسطة التحليل. وليس حدوثا زمنيا لتشكله المادي. فليس ثمة من علاقة إطلاقا بين غنى الدلالة في تأليف ما وبين الزمن المستغرق فى إنجازه أو تصوره.

يوجد صنفان من المراحل في المسار التوليدي :وهما البنيات السيميائية السردية والبنيات الخطابية. فمثلما أن كل منتج يتضمن إنتاجا فإن كل ملفوظ، سواء أكان لسانيا أم بصريا أم إشاريا يتضمن تلفظا، معطى منطقيا لإنتاج المعنى. إن التلفظ هو تولي الفاعل الذي يتكلم أو يتحرك أو يرسم مهمة الإمكانات التي يمنحها له نظام الدلالة الذي يستعمله. وهذه الإمكانات نوعان : إمكانات تصنيفية (تصنيفات وبناءات لوحدات المعنى)، وإمكانات تركيبية (أصناف من العمليات الأولية، قواعد لإقامة العلاقات التي تسمح بالتسلسل).

إن البنيات الخطابية، وهي المراحل التي تمر بها الدلالة ابتداء من اللحظة التي يقوم فيها الفاعل (ونسميه هنا "متلفظا" وهو ما سنرجع إليه) بانتقاء وتنظيم هذه الإمكانات الممنوحة من طرف النظام. فهنا يضبط التعارضات الكبرى التي سوف تجري خلال التأليف بأكمله لتضمن تناسقه. وهنا يختار أن يؤدي مثل تلك الوظيفة السردية بشخصية واحدة أو أكثر. وهنا أيضا يوافق على أن يحتفظ ملفوظه بخاصية مجردة أو على العكس من ذلك، من أجل أن يظهر في صورة أكثر تجسيدا، بل أكثر "صدقا". إن البنيات السيميائية السردية هي الإمكانات نفسها التي يتولاها الفاعل المتلفظ. إنها إذن في المسار التوليدي للدلالة، سابقة على البنيات الخطابية. ويليق أن نميز بين صعيدين للبنيات. فعلى صعيد أساسي، لدينا توطين لـ"الاختلافات المختلفة" التي تؤسس الدلالة، وكذلك تحديد القواعد التي تسمح بتحولات وتغيير المواقع الموضوعة على تلك الصورة. والمربع السيميائي (انظر أسفله) هو تمثيل لما يجري على هذا الصعيد. وعلى صعيد سطحي نجد هذه العلاقات والتحولات قد تم إرجاعها على التوالي إلى ملفوظات "حالة" وملفوظات "عمل" مع توفيقاتها وتسلسلاتها: فهنا تنشأ السردية وتظهر تلك الشخصيات الشهيرة المجردة التي نسميها

عاملات. لدينا ملاحظتان قبل العودة إلى الصعيد الأساسي لشرح ما هو المربع السيميائي.

1- لقد رأينا أن التلفظ هو معطى يفترضه مسبقا ومنطقيا كل ملفوظ، وأن المتلفظ هو الفاعل المنتج لهذا الملفوظ، الذي وفق تعريفه، يعاد بناؤه انطلاقا من هذا الأخير. ولهذا لا نتحدث عن "مؤلف" ولا عن "مرسل". فالسيميائية لا تريد أن تعرف عن المنتج غير ما يتضمنه ملفوظه. ولا معلومة واحدة حوله أو حول إيديولوجيته أو كفاءته التي لا يتضمنها النص أو الصورة أو الإشارة وحدها دون سواها. ونفس المبدأ للتعرف على من يقرأ أو يشاهد: فالملفوظ له (متلقي الملفوظ) هو الآخر سوف يعاد بناؤه من خلال موضوع المعنى المحلل. فبدلا من تناول المنتج والمتلقي من الخارج، من خارج الملفوظ، نمنح أنفسنا إمكانية أن نراهما يتشكلان شيئا فشيئا من طرف الملفوظ نفسه. إن المتفرج الذي يشاهد فيلما لهيتشكوك يبقى دون شك هو نفسه خلال مدة العرض، سواء أكان طالبا أم عاملا أو إطارا، وهذا لا يمنع من أنه سيتعرض للتحريض والمخادعة ثم المصارحة. فسوف يجعله الفيلم يخاف ويأمل ويشك ويكتشف .. وقيمة الفيلم تكمن في قصة هذه العلاقة بين الفيلم والمتفرج أكثر منها في العلاقة المعطاة دفعة واحدة بين السينما والطالب أو الإطار. يجب أن نفهم إذن أن المتلفظ والملفوظ له لا يحضران أبدا في النص أو الصورة. وحين نقول "أنا" فنحن لا نقيم غير تمثيل توافقي لمعطى إنتاج الملفوظ. لقد كان أرتور رامبو يقول "أنا هو غيري". "أنا" ليس هو من يقول "أنا". وكذلك أخيلة المنتج والمتلقي الحاضرة، والمقيمة في الملفوظ ("أنا"، "نحن"، "أنت" و"أنتم") تسمى على التوالي متلفظات وملفوظ لها.

2- ابتداء من الآن سوف نمثل المسار التوليدي للدلالة بشكل قبة جيولوجية. يوجد التمظهر على سطحها حيث يلتقي المضمون بالالزامات التي

يفرضها التعبير أو الخطية أو ثنائية البعد في الدال مثلا. فما نسميه بالبنيات النصية توجد هنا. وهنا يجب أن نعرف ونحترم الإلزامات المتعلقة بالوسائط، ونقبل أن نضفي الخطية على خطابنا، وأن نقول "الشيء بعد الآخر" إذا كنا نستعمل اللسان أو السينما. فالهنود ورعاة البقر يتصارعون في الوقت نفسه من زاوية نظر المحكي لكن في بعض الأحيان يجب أن نعرض بعضهم قبل بعضهم الآخر...

توجد طبقتان تحت "السطح": واحدة أكثر عمقا - بما أنها سابقة منطقيا كما رأينا - هي البنيات السيميائية السردية، والأخرى أكثر عمقا، وهي البنيات الخطابية. وفي كل واحدة من هاتين الطبقتين ثمة مكان لما ينتمي إلى العلاقات والمقولات (مكان لـ"الدلالي") وكذلك ما ينتمي إلى العمليات والتحولات (مكان لـ"التركيبي"). وفي الأخير يمثل "سطح" البنيات النصية و"طبقات" البنيات السيميائية السردية والخطابية الصيغ الثلاث للوجود السيميائي: الإمكانية والتحيين ثم التحقيق. فالبنيات السيميائية السردية هي بنيات الدلالة في إمكانيتها، والبنيات الخطابية هي البنيات التي فيها يقوم المتلفظ بتحيينها.. والبنيات النصية هي البنيات التي تتحقق فيها الدلالة، ما دامت تجتمع على مستوى التعبير لتتمظهر.

• المربّع السّيميائيّ

لدينا مع "المربع" نموذجا حيا عن المفهوم المعرض للتمييع (gadjétisation). يجب الاعتراف بأنه يمثل أداة ذات أهمية خاصة لدى المحلل وأنه قد أسال كثيرا من الحبر: في صورة كتب ورسائل جامعية وأعداد خاصة من المجلات. فماذا عنه إذن ؟ هو وصفة سحرية، مفتاح سحري أو علبة سحرية لدى المحلل؟ شيء جيد لمعرفة الدراسة التي ينجزها سيميائي ؟ لا شيء من هذا كله. فالمربع السيميائي يمثل ميراثا علميا ومقتضى للذين يتحملونه.

إذا كنا نعتبر مع دي سوسير بأن لا وجود للمعنى إلا من خلال الاختلاف، ومع هيالمسلاف بأن اللسان، مثل أي نظام للدلالة على كل حال، نظام علاقات وليس نظام علامات، فعلينا أن نفكر في مختلف فئات الإختلاف الممكنة التي سوف تخلق المعنى... وأن نبقى دون مسافة ما حيال علم صوري آخر -المنطق- يتخذ أولا حدودا معزولة لن تجمعها سوى بعد ذلك في علاقات. إن العلاقات بالنسبة للسيميائية تأتي في المرتبة الأولى. وليست الحدود أبدا سوى تقاطعات للعلاقات. وهناك سبب آخر للبقاء دون تلك المسافة: فالسيميائية عليها، ليس فقط أن تعبر عن الخطابات المسماة «منطقية» من قبل المنطق بل كذلك كل أنواع الخطابات التي تنتمي إلى أصناف أخرى من العقلانية : الأساطير والأحلام والعوالم الشعرية وأنواع المنطق المجسد، كما يقول ليفي ستروس، حيث يمكن لضدين أن يجتمعا.

المربع السيميائي هو التمثيل البصري للعلاقات التي تقيمها السمات التمييزية التي تشكل نفس المقولة السيميائية، أي نفس البنية. وتستثمر السيميائية من أجل بنائه أحد المكتسبات الجوهرية لدى اللسانيات البنيوية، وهو يتمثل في الاعتراف بوجود صنفين من علاقات التعارض ينشطان في اللغات: علاقة الإلغاء والعلاقة النوعية، بعبارة أخرى التناقض والتضاد. لنأخذ مثالا على ذلك: التعارض مؤنث/ مذكر. يمكن اعتبار هذه العلاقة محورا دلاليا يفترض فيه كل من الحدين وجود الحد الآخر قبله. فالحدان تربطهما علاقة نوعية بالتضاد. وخاصية هذه العلاقة هي أن الحدين يمكنهما التواجد في آن واحد. لكن هذين الحدين من المقولة يمكنهما، كل على حدة، إقامة علاقة إلغائية، فكل منهما يتعرف بخاصية مميزة تجعله في علاقة تناقض مع الحد الآخر الذي يتعرف بغياب تلك الخاصية. إن علاقة التناقض هذه هى نظرة سكونية : وهى من وجهة نظر حيوية تقابل

عملية النفي. أما التناقض فهو يتصف باستحالة رؤية حديه يتواجدان معا: مؤنث/ ليس مؤنثا، مذكرا/ ليس مذكرا، هما المثالان النموذجيان عن التناقض. وكآخر مرحلة لبناء المربع، عندما أنتجنا المتناقضات (بعملية النفي) فماذا يحدث لو قمنا عن طريق التأكيد، بالإبقاء على أحد المتناقضين ضد الضد الذي تم إسقاطه انطلاقا منه ؟ نقوم إذن بإظهار الضد الآخر كمفترض مسبق غير متبادل: فالتسليم بأن كائنا ما غير مؤنث هو جعل ذكورته ممكنة. وتقديم كائن ما على أنه ليس مذكرا ... إن العلاقات مؤنث/ ليس مذكر ا ومذكرا/ ليس مؤنثا تسمى علاقات تكامل والعملية التي تشكلها يمكن أن تكون استلزاما. ها هو إذن الشكل الذي سيتخذه المربع السيميائي انطلاقا من مثالينا:

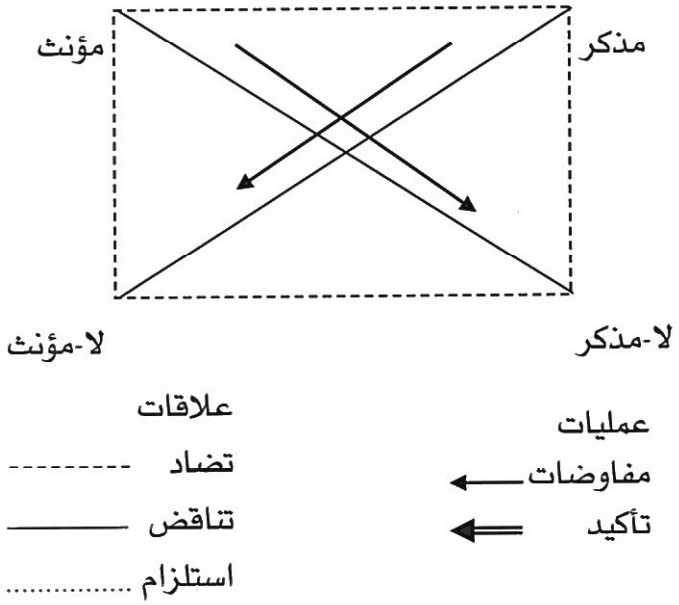

إن مربعنا المثال المبني بهذا الشكل يعبر عن التنظيم العلائقي لمختلف الحالات الجنسية، أو ، إن شئنا، مقولة الخاصية الجنسية. يمكن أن نموضع فيها الرجال والنساء والكائنات مزدوجة الجنس وحتى الملائكة (إذا سلمنا بأنها ليست لها أعضاء جنسية).

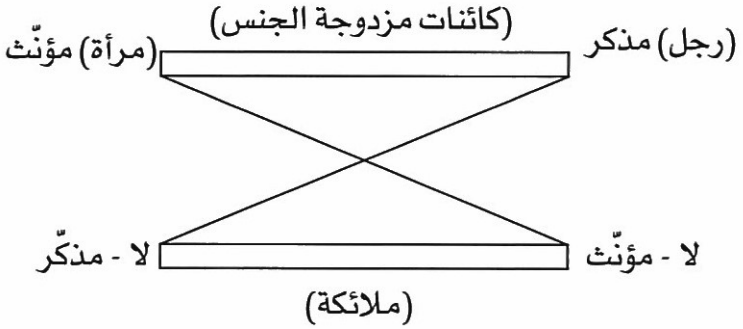

يمكننا التشنيع أو السخرية من جنسية مربعة بهذا الشكل. فهذا المثال الخطاطي يكفينا مع ذلك لنجعل الملاحظات المنهاجية التالية أقل تجريدا وأقل حدة :

1- إن المربع يتماشى جيدا مع الاشتراط البنوي، السوسري بأن لا يكون في اللسان، أو في نظام الدلالة، مهما كان صغيرا، سوى الاختلافات: إن الحدود الأربعة هي تقاطعات، ونهايات علاقات.

2- المربع في الوقت نفسه شبكة علاقات ومتتالية افتراضية من العمليات المنظمة: وهكذا فهو يمنحنا الشروط الدنيا للخطاب.

3- قد نكون لاحظنا في مربعنا التوضيحي بأن الحالات الجنسية الأربع الموضوعة لا تتطابق بالفعل مع الحدود الأربعة للمربع. ونفهم من ذلك أن "رجل" و"مرأة" كلمتان تعبران عن التضاد مؤنث ومذكر. و"مزدوجات الجنس" و"الملائكة" تعبران بالمقابل ، في هذا العالم الدلالي الجزئي، الذي يمفصله المربع، عن حدود معقدة حيث تتعايش الأضداد (حسب عقلانية الأساطير). أما الحدان ليس - مذكر وليس - مؤنث المسميان تحت المتضادين فهما حاضران منطقيا وقابلان للتوقع في العالم الجزئي للحياة الجنسية، مع أنه من الممكن أن لا يظهرا في هذه أو تلك اللغة أو الثقافة الخاصة.

4- يمكن الاعتراض بأن الحد ليس- مذكرا تعبر عنه كلمة (وحالة) الـ"المخصي": وهذا يعني أننا ننسى بأن المربع ينظم عالما متناسقا حيث تكون كل الحدود بمعنى ما على نفس المستوى: ويتعلق الأمر هنا بحالات جنسية "طبيعية" لم ينتجها الإنسان، على خلاف حالة الإخصاء بالنسبة للمخصي. إن المربع السيميائي يمصفل إذن عالما جزئيا دلاليا تكون حدوده، إن وجدت على مدى الخطاب، مسماة إيزوتوبية (انظر أسفله: التخطيب).

5- إنه لمن الواضح أن أهمية المربع السيميائي، هي تنظيم إتساق العالم التصوري، حتى وإن لم يعتبر "منطقيا". فهو يسمح بتوقع المسارات التي يمكن أن يتخذها المعنى، والمواقع الحاضرة منطقيا، والتي لم يتم استغلالها بعد، التي يمكن أن يستغلها. خاصة الأغراض والصور والمفاهيم والعبارات الموضوعة على المربع هي دائما مبينة في العلاقات المنطقية والدلالية المحددة. وسوف نعرف ما هي التمظهرات المطابقة وغير المطابقة.. كما يمكن أن نتبين أن كلمة واحدة يمكن أن تعبر في خطاب ما عن موضعين منطقيين متضادين، وربما متناقضين.

• السّرديّـة

لنضع قبل كل شيء السردية في المسار التوليدي للدلالة. فلقد رأينا أن البنيات السيميائية السردية توافق تنظيم الملفوظ (نص أو صورة أو فيلم) قبل أن يتولى التلفظ مهمتها. ورأينا كذلك أن السردية تمثل الصعيد السطحي لهذه البنيات السيميائية السردية. السردية هي المتتالية المنظمة من الأعمال (الحالات والتحولات) التي تعبر الجمل والمستويات والمقاطع. إنها الطبعة الحيوية و"المؤنسنة" لما يحدث على الصعيد العميق: فهناك تصير العلاقات افتقارات أو افتقادات، إحرازات أو اكتسابات. وتصير التحولات أداءات.

ويصير الذين يؤدون هذه التحولات فاعلين. يمكننا تعريف كل حالة بأنها علاقة بين فاعل وموضوع فالسيميائية تتصور المحكي كتنقل للمواضيع وتسمي الوحدة الأساسية، أي "جزيء" السردية، بالبرنامج السردي (ب-س) وهو يتكون من ملفوظ فعل يحكم ملفوظ حالة: فعل-الكينونة، وهذا أقل ما يجب لكي يكون لدينا محكي. إنطلاقا من هذا يمكن التصرف في طبيعة التحولات (إحرازات أو إفتقارات) وطبيعة المواضيع المتنقلة (سيف، محفز، إيديولوجيا ..) وكذلك حتى طبيعة الفاعلين (مثلا عندما يقوم الفاعل نفسه بالتحول وينال الموضوع أو يخسره، فنسمي البرنامج السردي إذن أداء له).

ومن أجل أن توضح السيميائية كيف للمحكي أن ينتظم، مهما كانت متغيراته وتسوياته، استفادت من الأعمال الحاسمة لفلاديمير بروب، ذلك الاختصاصي الكبير في الأدب الشعبي الروسي، لبداية القرن [العشرين]. لقد قدمت سلسلة الوظائف الواحدة والثلاثين التي عرض من خلالها التغيرات الكثيرة جدا من الحكايات التي حللها، أول تعريف للمحكي كمتتالية منظمة من الحلقات الصورية المعرفة فيما بينها. وقامت السيميائية، منذ ذلك الحين، بمراجعة عميقة لتلك السلسلة. وتم تقليص عدد الوظائف وكذا الشخصيات التي تقابلها وتمت إعادة تعريفها لتصبح الآن في صورة خطاطة سردية ونموذج عاملي.

الخطاطة السردية هي النموذج المرجعي الممثل للتنظيم الخفي للمحكي، متمفصلا حول أداء الفاعل والكفاءة التي يستلزمها هذا الأداء، وهو يقوم بتعريف عمل المحكي. لكن الفاعل لا ينجز أداءه ولا يحرز كفاءته إلا وفق عقد سابق يقوم بتنفيذه أو الخروج عنه. ومن زاوية تناظرية، يمكن للفاعل، بمجرد أن يتم تحقيق الأداء، أن يكون موضوع جزاء، إيجابي أو سلبي، حسب مطابقة الأداء بالنسبة للعقد المبرم. يجب إذن أن يتوقع التحليل بأن أى عمل يمكنه أن يتأطر بتوجيه (ينتهى إلى إبرام عقد) وبحكم

(ينتهي بجزاء). فكل عمل يفترض العمل المنجز.. وتبدو الخطاطة السردية ابتداء من ذلك كمتتالية منتظمة.

عقد ---------- جزاء

كفاءة - أداء

أما النموذج العاملي فليس سلسلة وإنما تنظيم علائقي للشخصيات - العاملين - وهي معرفة بمساهمتها بالذات في الخطاطة السردية. إننا نميز علاقتين أساسيتين، وبعد ذلك أربعة عاملين للسرد: الأولى هي العلاقة فاعل/ موضوع وهي علاقة طموح وبحث وهي تخلق التوتر اللازم عند انطلاق المحكي. والثانية هي العلاقة مرسل/ مرسل إليه وهي علاقة تواصل للموضوع وهي علاقة غير تناظرية وهذا على الأقل لأن المرسل يمكن أن لا يكون عليه أن يحرم نفسه من موضوع من أجل أن يفيد منه المرسل إليه. وهكذا فالذي يقوم بالتبليغ أو يوميء بالاعتقاد لا ينسى أو لا ينكر ما يتعلمه أو يقبله الآخر (ومنه جاءت عبارة "التواصل التساهمي").

لقد صار تمثيل المحكي، كما هو مبين في السيميائية، وبالمقارنة مع مورفولوجيا الحكاية لـ"ف. بروب"، كما هو واضح، أكثر تجريدا بكثير. فمفاهيم الزمن والمكان لا تتدخل فيه مباشرة، ليس أكثر من الشروط الاجتماعية أو مثلا "سيكولوجيا" الشخصيات. هو إذن تمثيل "اقتصادي"، يسمح للتحليل السيميائي بالسعي -إن لم يكن بالوصول- إلى الشمولية، والتعريف ليس فقط بالحكايات الشعبية، الروسية أو غيرها، بل كذلك بالروايات والأساطير بل حتى الخطابات العلمية. إنه تقدم من حيث التجريد ولكن كذلك من حيث التعقيد. وبالفعل، عندما يأخذ أداء الفاعل خصائص الامتحان ويكاد البطل الذي يكون في البداية سريا يظهر دائما

عندما ينكشف أول خائن، فإن التحليل السيميائي يكون قد تجاوز الخطاطة السردية للتعبير عن البنية السجالية للمحكيات. لقد كانت الخطاطة السردية في الأصل تفضل وجهة نظر البطل، ولكي تصبح موضوعية أكثر كان عليها إدخال الموضوع "السلبي" الذي يرفضه البطل، الخائن الذي يحاربه، السلطة التي يطعن فيها. إن الفاعل إذن يتعارض مع ضد - الفاعل، ويتعارض المرسل مع ضد- المرسل، وهو نفس المبدأ الذي يؤدي إلى مفهومي المساند والمعارض اللذين يشيران على التوالي إلى المعاملين (الفرديين أو الجماعيين) الذين يساعدون الفاعل والآخرين الذين على العكس من ذلك يدعمون عمل ضد-الفاعل.

من جهة أخرى اجتازت السيميائية مرحلة حاسمة من تطورها وذلك بتطبيق مفهوم الصيغة على تحليل كفاءة العاملين. إذا اعتبرنا الأداء فعلا فإننا نتصور الكفاءة كتوفيق بين إرادة - الفعل ووجوب - الفعل ومعرفة - الفعل والقدرة-على الفعل، السابقة والتي يمكن أن تتجسد خاصة بمصطلحات الرغبة أو الإرادة، الوجوب أو الاحترام تجاه القانون، المعرفة أو التجربة، الوسائل أو القدرة الفيزيائية. إن تعريف الكفاءة بالتراتبية أو بنظام إحراز هذه الصيغ هو التمتع بصنافة متناسقة وشاملة تؤكد وتثري بصورة معتبرة التصنيفات السيكولوجية الموجودة، المرتبطة كثيرا بالنسبية التاريخية والثقافية معا. هناك منفعة أخرى مرتبطة بالمقارنة الصيغية للكفاءة، تتمثل في إمكانية المتابعة الحثيثة لتاريخ الشخصيات والتعرف على وضعية أي عامل في كل مرحلة من مساره السردي: فهناك مثلا الفاعل حسب الإرادة وهناك الفاعل حسب القدرة إلخ. نسمي هذه "اللحظات" الصيغية للعاملين أدوارا عاملية.

تضاف إلى مجمل هذه العناصر الصيغية والعاملية في الأخير صيغة الحقانية. إن الإرادة والوجوب والمعرفة والقدرة تحدد العمل، أي الفعل. لكننا نستطيع كذلك أن نصيغ الكينونة (الحالة). يمكنها أن تحدد بالتقدير الذي نضفيه عليها: فنربط إذن بين الكينونة والتجلي. وهنا تنفتح لعبة المظاهر والحقائق: فذلك الفاعل بطل لكنه لم يظهر عليه ذلك بعد، وذلك الفاعل يواصل التظاهر بصورة البطل وهو لم يعد كذلك. من جلد الحمار إلى زورو ومن سندريلا إلى أوليس، كم هي كثيرة الحكايات والأساطير التي تقوم - على الأقل جزئيا - على تسلسل هذه الأدوار العاملية الحقانية: الحقيقي (أو الظاهر) والمزيف (أو المكشوف)، الكاذب والسري. يمكن للمربع السيميائي من جهة أخرى أن يحدد تعريفاتها، مقترحا في نفس الوقت تنوع المسارات الممكنة.

• التّخطيب

ماذا يحدث لافتراضات البنيات السيميائية السردية، بمجرد تنظيمها، عندما يتولاها المتلفظ ؟ هذا السؤال يجرنا إلى تفحص البنيات الخطابية. فلنبدأ بالتذكير بواحدة من الملاحظات التي ختمنا بها تقديمنا للمسار التوليدي. فقد قلنا إن المتلفظ ليس سوى منتج - مخرج بمعنى ما - لهذا الاستعراض الذي هو الخطاب. وليس هناك من شخصية فيه هي القائمة بالتلفظ. فدارتانيون ليس ألكسندر دوما، ولا أصدقاءه الفرسان. وتصلح المغايرة نفسها بالنسبة للأمكنة والأزمنة التي تصنع إطارا لهذا العالم المثالي. مع أنه يحدث لبعض هذه الأخيلة أن تمثل، من باب التوافق، معطى للتلفظ.

تقدم الـ"أنا"، "هنا" و"الآن" على وجه الخصوص صورة عن ذلك، تم تشخيصها وتمكينها وتزمينها. وعلى العكس من ذلك عندما نبدأ قصة

بـ"كان يا ما كان، في بلاد بعيدة، طفلة صغيرة يتيمة.." فهذا خلق لعالم الخيال بإسقاط زمن ومكان وممثل تم تعريفه خارج المعطى الذي نتحدث منه. إن التخطيب إذن هو الانطلاق من هذا المعطى لمباشرة تعطيل العالم الخيالي، المثالي، لكي نربطه بعد ذلك بواسطة التوصيل، لعدة مقاصد منها أن نجعله قابلا للتصديق. وهكذا ينتج التعطيل والتوصل مجموعة الممثلين ويوفر الإطارين المكاني والزماني حيث يتم استغلال العاملين والمسارات السردية.

يبقى أن ضبط تحولات الزمان والمكان والممثلين لا يمثل غير جزء من "الإخراج". لنأخذ على سبيل المثال مسارا سرديا خاصا، محددا بالبحث، من طرف الفاعل، عن موضوع قيمة مثل "الحرية". عندما نفرغ مسار التحرير في الخطاب وخاصة عندما نضع له مكانا، نجده يتحول إلى فرار. ومن هنا يصبح الغرض أقل تجريدا. لكن نفس المسار يمكن أن يصبح تجسيديا بكل صراحة عند ظهور "سياج" و"مجموعة أحصنة" و"شحن" أو أيضا عند ظهور مصابيح عجيبة وأبسطة طائرة. إن التخطيب هو أيضا أن نجعل من المسار السردي المجرد، من خلال الاستثمارات الدلالية المعقدة والمخصصة أكثر فأكثر، مسارا غرضيا ثم مسارا تجسيديا. إن واحدة من مهام السيميائية هي على وجه التحديد التعرف على مثل هذه المسارات خلال المحكي واستخراج الأدوار الافتراضية منها. على هذا الصعيد سوف تسمى الشخصية المدروسة في لحظة ما من المحكي، ممثلا ويحددها اجتماع دور عاملي مع دور غرضي. "لقد تعرفوا على الشاب وهو متنكر وأعادوه إلى الحبس". إن "الشاب" (ممثل) يجمع هنا الدور الغرضي لـ"الهارب" والدور العاملي للشخصية "المكشوفة" (أي الفاعل المتنقل من السري إلى الحقيقي، كما يعرضهما المربع الحقاني).

انطلاقا من التجسيدية التي يمكن للمتلفظ أن يقيمها في خطابه، نعثر على مفهوم أساسي في السيميائية وهو مفهوم "الإيزوتوبيا" الذي تمت الإشارة إليه عند الحديث عن المربع السيميائي. لعل هذه النكتة من بين ألف قصة طريفة أن تصلح لتوضيح ذلك. فأحد المدعوين قال لجاره على نفس مائدة العشاء : "توجد مراحيض جميلة هنا" فرد عليه الآخر:"لا أعرف فأنا لم أذهب هناك بعد". إن مبدأ هذه النكتة مثل كثير من النكت الفكرية هو إقامة صعيد للمعنى متناسق يضمن اتساق المحكي، والمرور، المتأخر بسبب حدود الخطاب، من إيزوتوبيا ثقافية "لباسية" إلى إيزوتوبيا طبيعية ("قضاء الحاجة") نشاز، بمجرد إقامة الديكور المتحضر. ومن هنا يأتي أثر المعنى الهزلي.

إن الإيزوتوبيا مفهوم أساسي من حيث أنه يجعلنا نفهم كيف يضمن استمرار نفس القاعدة التصورية، إنسجام المحكي رغم التنوع التجسيدي للممثلين وللأعمال. إذ يمكن "التواصل" بين إيزوتوبيتين. إن النكت وقصص الحيوان والعضات وكثير من الخطابات مزدوجة الإيزوتوبيا، نحكي فيها قصص الحيوانات لنعبر عن تحليل للمجتمع البشري، أو نتحدث فيها عن الحصادين وعن السيد للتعبير عن إرادة الله. وهنا نرى أن الاستعارة، كصورة، ليست سوى تحقيق خاص (ومحدد جدا) لهذا النوع من الخطابات. وإن السيميائية تؤدي إلى التحضير، عن قرب، لإعادة صياغة شاملة للبلاغة قد تنتهي بتصنيف أكثر انسجاما للصور البلاغية التقليدية.

• العلاقات بين التّعبير والمضمون

في الأخير، ولكي نقفل الحلقة، يمكن أن نرجع إلى العلاقة البنائية لكل لغة، وهي العلاقة بين مستوى التعبير ومستوى المضمون. فالسيميائية اليوم تستطيع أن تميز ثلاثة أصناف من اللغات على أساس طبيعة هذه العلاقة.

ففي إثر "ل.هيالمسلاف" نميز بين الأنظمة الرمزية والأنظمة السيميائية الخالصة. والأنظمة الرمزية هي اللغات التي يكون فيها المستويان متطابقين تماما. فكل عنصر من التعبير يقابله عنصر -وعنصر واحد فقط- من المضمون إلى درجة أنه لن يكون من المفيد للتحليل أن يواصل التمييز بين مستوى التعبير ومستوى المضمون، ما دام لهما نفس الشكل. ومن وجهة النظر هذه تعتبر اللغات الصورية ومثلث الأضواء وأضواء نظام المرور أنظمة رمزية. أما الأنظمة السيميائية الخالصة فهي اللغات التي لا يكون فيها تطابق بين المستويين بحيث يجب أن نميز بين التعبير والمضمون وندرس كلا منهما بمعزل عن الآخر. إن اللغات "الطبيعية" الروسية والفرنسية... إلخ، هي فئة هذه الأنظمة السيميائية. لكن هنا لدينا أيضا أنظمة سيميائية وهي غير لسانية، بصرية مثلا. وفي الأخير فإن الدراسات الأخيرة حول الشعر وكذا مختلف الفنون التشكيلية (رسم، تصوير فوتوغرافي، ملصقات..إلخ) قد بينت أهمية صنف ثالث من اللغات قابلة للتعريف فيما بينها بالنظر إلى الصنفين السابقين (ومن حسن حظ انسجام النظرية السيميائية) : هي الأنظمة النصف رمزية، التي تتعرف، من جهتها بالتطابق، ليس بين العناصر المعزولة للمستويين وإنما بين مقولات التعبير ومقولات المضمون. فالمقولة البصرية المكانية يمين/ يسار تقابلها مثلا في الرسومات الزخرفية القروسطية التي تمثل يوم الحساب والعقاب مقولة دلالية هي ثواب/عقاب. مثل هذه الأنظمة شائعة وراهنة أكثر مما نعتقد. ولنفكر في ثنائية مقولة نعم/ لا (موافقة/ نفي) ومقولة حركة الرأس (عمودية/ أفقية). كما أن نجاح الخطاب الإشهاري، البصري و/ أو النصي، أساسه السيميائي تحفيز العلامات التي تنتجها هذه الأنظمة نصف الرّمزية.